

٥ - نشأة المسرح الانجليزي

[معلومات طريفة كثيرة عن نشأة هذا المسرح]

للأستاذ دريني خشبة



أشرنا في الفصل الأول من هذه الفصول عن نشأة الدراما الإنجليزية إلى المسرح المتحرك (المتقل) أو ال Pageant وتنكلم في هذا الفصل عن نشأة الفرق التمثيلية ، ثم عن السارح البدائية وأول ما عرفت إنجلترا منها . وقد قدمنا أن رجال الكنيسة هم الذين اضطلموا أول الأمر بتمثيل الروايات الإنجليزية والدرامات القديسية ، وأنهم أصحاب الفضل في تربية الذوق المسرحي وطبعه في وعي الجماهير حتى انتقل زمام التمثيل من أيديهم إلى أيدي رجال النقابات ، وما قامت به تلك النقابات من مجهود مشكور في تشجيع المؤلفين والممثلين المحترفين ، ثم نوهنا بما كان لرجال البلاط الإنجليزي والأمراء والنبلاء وأعيان البلاد

إن الذي طلب الملك ليس عندي ... فلما رجعا إلي كسرى ...
قال للرسول : وما قال ؟

فقال الرسول : أيها الملك ، إنه قال : أما كان في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا . فعُرف الغضب في وجهه ، ووقع في قلبه منه ما وقع ؛ لكنه لم يزد على أن قال : رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم صار أمره إلى التباب . وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان ، وسكت كسرى شهراً على ذلك ، وجعل النعمان يستمد ويتوقع حتى أتاه كتابه أن أقبل ، فإن للملك حاجة إليك . فانطلق حين أتاه كتابه ، فحمل سلاحه وما قوى عليه ثم لحق بجبلي طيء ... »

وقد روى ما نقلنا مختصرين أبو الفرج في « أغانيه » في أخبار عدي بن زيد ، ورواه ابن جرير الطبري في « تاريخ الأمم والملوك » خبراً تاريخياً لا ريب عنده فيه . وهذه الأسطورة النعمانية مثل الأسطورة البراقية ، أحدثة أخت البراق القائلة أو المقولة : « ليت للبراق حيناً فترى » القصيدة المثيرة المشهورة (م)

من فضل في الأخذ بيد هذا الفن الناشئ ومد رجاله بما يفتقرون إليه من المال الذي لا ينجح مشروع بدونه . ولقد نشأ الاحتراف في المسرح الإنجليزي من ناحيتين ، الأولى هي ناحية صبيان الكنائس الذين كان يتألف منهم الخورس أو المندسودون The Choristers — وقد عني بتدريب هؤلاء الصبيان على التمثيل منذ نعومة أظفارهم لكي يتفرغوا لأداء الأدوار التمثيلية في مختلف الروايات خصوصاً بعد أن أصبح إقبال الجماهير على مشاهدة التمثيل إقبالاً رانعاً ، وما حدث نتيجة لهذا الإقبال من استغلال التمثيل استغلالاً اقتصادياً كانت أول موارده تلك المزايدات التي أشرنا إليها سالفاً ، والتي كانت تدر على النقابات الأرباح الطائلة . من هنا روى انقطاع هؤلاء الصبيان لهذه الحرفة الجديدة التي جمعت بين شرف العمل وشرف الكسب مع صلها المتينة بالأدب الإنجليزي الذي كان وما يزال نوط العزة على صدر كل أديب في إنجلترا . أما الناحية الثانية التي نشأ عنها الاحتراف فهي تلك النقابات التي تكلمنا عنها آنفاً . هذا ، وقد تألفت بعد ذلك جماعات من أولئك المحترفين كانت باكرة « الفرق التمثيلية » في إنجلترا ، وكانت كل جماعة تتمتع برعاية أحد النبلاء حتى لا تقع تحت طائلة قانون « المتشردين ! » وذلك لكثرة تقلبهم في البلاد ، وتغلبهم من قرية إلى أخرى ، ولأن الحكومة الإنجليزية لم تكن قد اعترفت بعد اعترافاً رسمياً بهذه الحرفة الجديدة ، فكان أفراد الفرقة من هذه الفرق يجيئون ويروحون تحت اسم : « خدم فلان من اللوردات أو الدوقات أو رجال البلاط ! » حتى يكونوا بنجوة من مما كسات رجال الإدارة (١) ومشا كساتهم ، فهذه فرقة « خدم الأيرل أو فيليستر » ، وتلك فرقة « خدم البلاط الملكي » ، وهذه فرقة « خدم دوق أو في سومرست » ، وهكذا ... والحقيقة أنه لم تكن نعمة أية علاقة بين هذا الدوق أو ذاك الأيرل ، وبين الفرقة التي انتحلت لنفسها رعايته انتحالاً . ولقد كان المسرح الأول الذي تؤدي فيه الدراما ، هو إما بهو من أبهاء البلاط وإما رواق من أروقة قصور الأمراء أو النبلاء أو عظماء الشعب ، فإن لم يوجد هذا أو ذاك ففي بهو من أبهاء الفنادق ، أو في أحد أروقة جامعتي

في زعمه إلا للراحة والترفيه عن الشعب اللاغب المتعب من عناء العمل ؛ وكذلك حظر عليهم التمثيل مطلقاً أيام الآحاد . . . ولم يشأ رجال الفرق أن يشاغبوا جبروت هذا التشريع التعسفي ، بل آثروا السلامة ، وانتقلوا بقضهم وقضيفهم إلى الضفة الجنوبية من نهر التيمس ، حيث لا سلطان لهذا المحافظ الجاهل ولا تشريعه الخائق عليهم . وهناك استأجر جيمس^(١) بريدج Burbage قطعة من الأرض في بلاك فرايرز Blackfriars لمدة إحدى وعشرين سنة وأقام عليها (تركيبة ١) من الخشب سنة ١٥٧٦ أطلق عليها اسم (التياترو) The Theatre فكان هذا أول المسارح الإنجليزية التي مهدت لأعظم مسارح العالم ثم أنشئ قريباً من هذا المسرح فيما بعد مسرح الكرتين (الستار Curtain) الذي اشتغل به الشاعر الكبير بن جونسون مثلاً بسيطاً في صدر شبابه . ولم يكن الكرتين يتمتع بالسمعة الطيبة التي كان يتمتع بها المسرح الآخر ، بل كانت العملية تصد عنه وتعتبر الذهاب إليه تقيصة أدبية . . . والظاهر أنه لم يكن يعرض إلا الدرامات الثانوية « روايات الدرجة الثالثة ! » ، وذلك بالرغم من أنه أخرج درامة شيكسبير الخالدة « روميو وجوليت » سنة ١٥٩٦ . وكانت أجرة الدخول في هذا المسرح بنساً واحداً يضاف إليه بنس آخر لمن أراد كرسياً في الأبهة أو فوق المسرح

ومن المسارح الأخرى التي أقيمت بعد هذين المسرحين الروز « الوردة » والسوان « البجعة » ، وقريباً من السوان كان يوجد ملعب البير جاردن The Bear Garden حيث كان الناس يستمتعون بمشاهدة مروضي الوحوش ، وتقاتل هذه الوحوش نفسها ضد بعضها . . . أما مسرح السوان فكان يمتاز من مسرح الجلوب العظيم « الذي سيلي وصفه » بما كان فيه من مسرح إضافي لتمثيل الروايات التي من طراز « هملت » ، وحجرة نوم للروايات التي من طراز عطيل حيث تنام ديدمونه ، وكان به شرفة لتمثيل روميو وجوليت ، كما استعملت فيه الستار لأول مرة لقسمه المسرح وذلك لتبديل المناظر . وكان يحتوى

(١) والد رينشارد بريدج أحد ممثلي شيكسبير نيا بعد وأحسن ممثلي هملت ولير وعطيل

أو كسفورد وكبرديج . على أن أبهاء الفنادق كانت أحفل الجميع بالتمثيل المنتظم المستديم . في جميع أيام الأعياد بالطبع . لأنها لم تكن أبنية خاصة كقصور الملوك أو الأمراء مثلاً ، ولذا كانت أقرب إلى الارتياح الحر وأيسر على أفراد الشعب من غيرها . وكانت فنادق المدينة تبني كلها في موضع واحد منها حول ميدان ، أو ساحة كبيرة تنتظر فيها العربات والدواب ، وما إلى ذلك من وسائل النقل والحل ؛ فكانت شرفة terrace الفندق الأوسط تستعمل مسرحاً ، ويقف النظارة من أفراد الشعب في الساحة أو الباحة أو الميدان . أما السفّر من زآل الفنادق فكانوا أسمعد حالاً ؛ إذ كانوا يجلسون في عظمة وإدلال وأبهة في شرفات غرفهم فوق الأرائك والكراسي الفخمة ، حيث يطوف عليهم الخدم بالأطياب والأشربات . ولم تكن المناظر المسرحية قد عرفت بعد ، بل كانت تحمل محلها « سبورة » ! يكتب عليها بالخط الكبير اسم المنظر الذي يجب أن يتوهمه النظارة توهمها ، فيكتب مثلاً : « هذه قلعة جلوم ! » أو « هنا غابة أردن ! » وهكذا . . .

أما كيف أنشئ المسرح الأول فلذلك سبب عجيب مضحك في آن معاً . . . ويجب قبل إيراد الرجوع قليلاً إلى التاريخ الاجتماعي ل إنجلترا ، وإلى هذه المصوالت التي كانت « مسز جراند ! » رمز الحفاظ والتمسك بأهداب التقاليد والآداب المرعية تتحكم في انحصار البريطانيين تحكما جباراً لا يسهل الفكك منه . . . ويجب كذلك أن نذكر ذلك الروح الطهري Puritanism الذي كان يسود الحياة في المدن الإنجليزية عامة ، ولندن - أم القرى ! - على وجه الخصوص . . . ذلك الروح المترمت الرجمي الذي كان يضيف التمثيل إلى شعبذات المهرجين ومسارح الحواة وأكلة الثمايين ومروضي الوحوش ومراقصي الدببة والقرود ومصارعي الثيران ، ومن إلى هؤلاء جميعاً من سائر البهايل (١١) . . . هذا الروح الطهري هو الذي دفع محافظ لندن إلى محاربة التمثيل والممثلين بالقوانين . . . فأصدر تشريماً صارماً يحظر على رجال النقابات والفرق التمثيلية غشيان أبهاء الفنادق إلا بتصريح خاص - وقلما كانوا يحصلون منه على هذا التصريح - كما حظر عليهم التمثيل في الميادين والطرفات العامة أو المتزهات التي ما جمعات

غرفة للممثلين خاصة تتمثل بالخشبة بباب فلا يرام النظارة حين ينتهون من أداء أدوارهم - ومن الظريف أن حجرة الممثلين هذه كانت بأعلى التياتروا ، وكان لها سلم لولبي لكي لا يشغل حيزاً كبيراً ، كما كانت إلى جانبها حجرة المؤذنين الذين يدقون الطبول لإبذانا بيد التمثيل . وكان السوان كبيراً جداً بحيث يتسع لثلاثة آلاف من المتفرجين !

ونعود إلى المسرح الأول - التياترو The Theatre فنذكر أنه لما رفض صاحب الأرض تجديد عقد الإيجار ، اضطر بريديج إلى فك أخشاب مسرحه ونقلها مع جميع أدواته الأخرى إلى الشاطئ الآخر من النهر ، في سوثوارك Southwark ، حيث أنشأ مسرح الجلوب العظيم The Globe سنة ١٥٩٨ (١) - وكان عمر شيكسبير إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة بينما كان عمره عند إنشاء المسرح الأول اثنتي عشرة سنة فقط

أما هذا المسرح الثاني (الجلوب) ، فقد كان من خارجه سداسي الأضلاع ، أما من الداخل فكان مستديراً ، ولم يكن مسقوفاً إلا من فوق أهبائه التي كانت تذكر بأهباء الفنادق ، وكانت هذه مغطاة بنوع من القش المروف عندنا بالسمار ، وهو الذي تصنع منه الحصر ؛ أما البت - أي خشية المسرح ، فقد كان موضعها في الوسط على ارتفاع أربعة أقدام ، ولم تكن حولها مقاعد للنظارة الذين كان شيكسبير يسميهم Groundlings ركان عليهم أن يقفوا طول وقت التمثيل - أما نظارة الأهباء « البنابر والألواج » فقد كانت لهم مقاعد خشبية ، كما كانت توجد مثل هذه المقاعد أيضاً فوق خشبة المسرح نفسها ، وكان فرق ما بين الواقفين والجالسين هو أن يدفع هؤلاء ستة بنسات أكثر على أن يسمح لهم بشرب الجمعة « البيرة » والتدخين بالفلايين . وكانت هذه الطبقة المتنفخة المتأثرة تسمى طبقة ال Gallants . وكان منها عدد من الشباب الظريف المتقف يجلس هناك مجلس الصحافي المسرحي ، لينقد المفاظر والإخراج وأداء الممثلين في فترات الاستراحة بين الفصول . وكان التمثيل يبدأ عادة حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكانت تسبقه ثلاث دقائق تنبيهية بالطبل النحاسية « الترميطة » وكانت البرامج (١) خالف هارلز هيلستنج كل الروايات فذكر أنه أنشئ سنة ١٥٩٣

تطبع بالمداد الأحمر إذا كانت التثيلية مأساة ، وإلا فبالمداد المادي . ولم تكن هناك أية مناظر في أول الأمر . ولم تكن ثمة أية عناية بالتوزيع الضوئي . وكانت السبورة أو لوحة الإعلانات Placard تقوم مقام المناظر بكتابة أسمائها عليها كما ذكرنا . ولشارلز لامب في ذلك تسجيل أدبي رائع من شعره الظريف . وكانت الأدوار النسائية تسند إلى ولدان من ذوي الجمال في الجسم والوجه والصوت . وكان لكل فرقة يهول « بلياتشوا » يشمذ في فترات الراحة بين الفصول ، فكان أحياناً يفتي أو يشهر ببعض الشخصيات التي يثير التشهير بها كثيراً من الضحك بين النظارة ، كما كان يعلق بأسلوب فكه على أهم حوادث اليوم . فإذا انتهى المثلون من آخر فصول الدراما اجتمع كل أفراد الفرقة في ركن من أركان المسرح ، ثم ركعوا تحية للملك والملكة ، وهو ما يشبه السلام الملكي اليوم ...

هذا ، وقد بُدئ باستعمال المناظر المتحركة بعد النهضة الإصلاحية ، وكانت الفضل في استعمالها للسير وللم دافنانت Davenant ، وكذلك حل النساء محل الولدان في تمثيل الأدوار النسائية سنة ١٦٦١ . ذاك وقد كان لكل مسرح من المسارح الإنجليزية علامة مسجلة ؛ فعلمة الجلوب صورة للبطل اليوناني الخرافي الجبار هرقل حاملاً بيديه الريدتين كرة أرضية ، وكان على مقربة من الجلوب مسرح البلاك فرايز ، وكان شيكسبير يؤلف دراماته لهذين المسرحين خاصة ، كما كان يساهم في التمثيل وفي الأرباح على السواء . وقد كان الجلوب هو المسرح الصيفي ، أما الآخر فكان مسرح لندن الشتوي العتيق ، وبذلك امتاز عن الجلوب الذي كانت المسارح الأخرى تنافسه منافسة شديدة ، ولا سيما مسرح الفورشون « الحظ » الذي أنشئ سنة ١٥٩٩ لمنافسة شيكسبير . وكانت كل هذه المسارح الصيفية ما عدا الفورشون قائمة وسط مستنقعات كبيرة ، وكان المتفرجون يصلون إليها فوق جسر طويل . وقد حدث في سنة ١٦١٣ أن شب حريق كبير ألهم المسرح العتيق كله ، ولم يلبث صاحبه أن جدد في السنة التالية . وقد انتهز الفرصة فاستبدل بالخشب الملاط ، وبقش التمار الإرهواز ، واصطنع خشبة

ولم تكن المكتبة حبيبا على المثليين ، بل كان الشب ينال منها نصيبا لا رأس به من الاطلاع . وقد تضاعفت هذه المكتبات بعد نشاط الطباعة وتقدم وسائلها الحديثة ، وصار المؤلفون المسرحيون يمنون بطبع دراماتهم والوقوف على طبعها بأنفسهم . ولم يكن أحسن مسارح لندن يشتري من أحسن هؤلاء المؤلفين حق تمثيل إحدى دراماته بأكثر من ثمانية جنيهات (تساوى الآن ثمانية ا) ، وكان أصحاب الفرق يستغلون المؤلفين استغلالا دنيشا ، فكان المؤلف الفقير يقترض من مدير إحدى الفرق مبالغ تافهة على أن يقدم بها درامة أو درامتين ، فإن هجز عن السداد دخل الربا بين الطرفين ، وظل المؤلف مستعبدا إلى الأبد . على أن عددا قليلا من المؤلفين استطاع أن يقف من هؤلاء المديرين موقفا حازما ، إذ استطاعوا أن تكون لهم حصصهم في ميرانية المسرح ، وعلى رأس هؤلاء مارلو وبن جونسون وشيكسبير

وكان النساء محرومات من غشيان المسرح بادی الأمر ، فلما خفت وطأة المزر جراندى ، أخذن في الاختلاف إليه حتى أصبحن عنصرا هاما فيه ... محلات ونظارة ا

« ينبع » « مربي خبيثة »

المسرح من ألواح السنديان ، كما خص المثليين بفرقة كبيرة خلفية يستجمعون فيها ، وزاد في عدد الأبناء « البناوير » فجعلها ثلاثة صفوف بدل صف واحد . وقد كلفه المسرح الجديد ثمانين وثمانمائة من الجنيهات قيمتها الآن ثمانية آلاف . ذاك وقد كثر عدد المسارح في أواخر عهد الملكة اليزابث داخل لندن نفسها ، فكان ثمة مسرح الكوك بت أو الفورنكسن ومسرح الرديبول Red Bull ... الخ . وقد أخصيت هذه المسارح فكانت أحد عشر مسرحا . على أن المنافسة الشديدة الحق كانت بين اثنين منها فقط ، وهما : الجلوب وكان تحت رعاية اللورد تشمبرلن ، والفورشون وكان تحت رعاية اللورد أوميرال ؛ وكأنا كلاهما يتمتعان برعاية الملك المباشرة . وكان من هذه المسارح ما هو خاص وما هو عام . وكانت الهيئة التي تشرف على المسارح الخاصة ، مثل الكوك بت والسلسبرى والبلاك فرايزر ، هيئة منتقاة يراعى في اختيارها شرائط لا داعي لذكرها هنا . وكانت المسارح الخاصة على العموم أصغر بكثير من المسارح العامة كالجلوب والفورشون والرديبول ، كما كانت مسقوفة دائما ليستمر التمثيل فيها طول العام ، بعكس المسارح العامة التي كانت مكشوفة الوسط لاتساعها ، ولم يكن يستمر التمثيل بها غير أشهر الصيف ، من ثلاثة أشهر إلى خمسة . أما في الشتاء ، وهو سبعة أشهر تقريبا ، فقد كان الضباب الكثيف يحول دون التمثيل فيها ، خصوصها والمشاغل لم تكن قد استعملت بعد . وقد اقتبست المسارح الإنجليزية في أوائل القرن السابع عشر وسائل المسرح الفرنسي الآلى في إخراج المناظر المختلفة . وكانت وسائل لجة غير رائدة ، وكانت تستعمل في إبراز الغابات أو القصور أو المدن ، كما أخذت عن المسرح اليوناني القديم طريقة الستار الأسود في أقصى المسرح إذا كانت التمثيلية بأساة ... على أن هذا النقص في الإخراج كانت تستره مكتبة المسرح ، إذ كان لكل معزج مكتبة محترمة تتألف من أصول اللزمات التي يقوم بعرضها ، ثم من مئات من أمهات الكتب التاريخية والمسرحية والأدبية ،

مجموعات الرسائل

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأمان الآتية :
السنة الأولى في مجلد واحد ١٠٠ قرش ،
و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات :
الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة
والثامنة والتاسعة والعاشر في مجلدين . وذلك
عنا أجرة البريد وندره خمسة قروش في الداخل
ومعبرة قروش في السودان وعصرون قرشا
في الخارج عن كل مجلد .